مَعَاقِدُ الأُصُول

ملخصٌ لدروس المرحَلة الأُولى
" مقدمةٌ في أصُول الفِقه "

إعداد

فوائد معاقد الأصول fmaasol

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

إن أصــــول الفقه عِلم جليلُ القدر، بالغ الأهمية وغزير الفائدة؛ فائدته التمكُّن من حصــــول قدرة تستطيع بها استِخراج الأحكام الشرعية من أدلتها على أسُس سليمة؛ أي أنك إذا عرفتَ أصول الفقه، أمكنَكَ أن تَســتنبِط الأحكام الشــرعية من أدلتها، وهي أهمُّ بالتحصــيل وأولى بالدراية من غيرها، لأنّها أصــولُ للعلم بمعنى أنّ إدراك ما فوقها من مســائل العلم متوقفٌ على تحصِــيلها، لذا يقول العُلماء: (من حُرِمَ الأصــــول، حُرِمَ الوصــــول). فمن حفظ المغني –وهو أكبر كتب الفقه– واستظهره وصار يقرأهُ كالفاتحة، سيبقى عاجزًا أمام أصغر نازلةٍ من النوازل المعاصرة، بسبب عدم امتلاك الآلة، وهي علم «أصول الفقه».

وعلم أصولُ الفقهِ يرتكز على شيئين: معرفة الأدلة الشرعية، ومعرفة طرق الاستدلال.

نشأة علم أصول الفقه في عهد النبي ﷺ زمن الصحابة

كان علمُ أصول الفقهِ حاضرًا في عهد الصحابة بما يتلقّونه من رسول الله ﷺ، يضرب لهم الأمثلة ويعلمهم كيف يتعاملون مع قواعد الاستنباط وبمحاولاتهم في فهم النص، والنبي ﷺ يقوّم ذلك كله فيصوّب ويخطّئ ويبيّن، ومن أمثلة ذلك:

- فهم الصحابي لقول الله: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ حيث اتخذ عقالين أحدهما أبيض والآخر أسود يجعلهما علامة على الفجر، اجتهاد منه رضي الله عنه، فلما أخبر النبي ﷺ بيّن له عدم صحة محاولته لفهم النص الشرعي الشريف.
- لما نزل قول الله: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ شق ذلك على الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وذلك لصيغ العموم في الآية، فكانت قواعد الأصول حاضرة عندهم.
- لما نزل قول الله: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ شقّ ذلك أيضًا على الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وذلك لصيغة العموم والقيد الذي خصصها في الآية، فدل ذلك على أن قواعد الأصول كانت حاضرة في أذهانهم.
- لما سمعت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قول النبي ﷺ: «من نوقش الحساب عذّب» قالت: أليس يقول الله تعالى: ﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ ﴾ قال: «ذلك العرض»، ففَهِمَتْ عائشة صيغة العموم في قول النبي ﷺ، وقابلته بآية في كتاب الله تعالى، ظاهرهما التعارض، واستشكال عائشة هذا رضي الله عنها ليس قلةً في الفهم، بل قوّة في الفهم وبلوغ للدرجة العالية فيه، فالجمع بين النصوص التي يبدو في ظاهرها التعارض درجة راقية من درجات الفهم عن الأصوليين، وإعمال الدليلين أولى من إهمال أحدهما.
- قول الأعرابي للنبي ﷺ: إن امرأتي ولدت غلاما أسود. فقال النبي ﷺ: «هل لك إبل؟» قال: نعم. قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر. قال: «هل فيها من أورق؟» قال: نعم. قال:

«فأنى أتاها ذلك؟» قال: أراه عرقٌ نزعه. قال: «فلعل ابنك هذا نزعه عرق». وهذا عين القياس، حيث عمل به النبي ﷺ، وقرره، وعلّمه للصحابة الكرام.

- عندما قال النبي ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة» قال الصحابة: أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر». كان يمكن أن يقول (نعم) لأن المجيب هو المشرّع ﷺ، لكن في جوابه ﷺ تعليم وتلقين وتوسيع لمدارك الاستنباط تربّى عليه الصحابة رضوان الله عليهم.

ملكة الصحابة في التعامل مع النص:

- لغة وسليقة.
- تنمية من النبي ﷺ، كما في المثال السابق.

- ما روي عن نافع عن عبدالله قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزان أن: «لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة»، فتخوف الناس فوت الوقت، فصلوا دون بني قريظة، وقال آخرون لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال الراوي: فما عنف واحدا من الفريقين. وهذه محاولةٌ للصحابة في فهم النّص، وهم كلهم يتعاملون مع نص واحد، لكن اختلف اجتهادهم في فهمه، فانقسموا في فهمهم إلى قسمين:
  - قسمٌ اعتمد على ظاهر النص، وهؤلاء سلف أهل الظاهر.
  - قسمٌ اعتمد على المعنى، وهؤلاء سلف أصحاب المعاني والقياس.

الصحابة بعدما انقضى الأمر سألوا النبي ﷺ رغبةً في التعلّم ليعلموا ماذا يصنعون إذا واجههم مثل هذا النص مستقبلًا، وهم يريدون درسًا في الأصول: كيف نفهم قولك يا رسول الله؟

إن قول بعض العلماء: (لا اجتهاد مع النّص) يقصدون به لونٌ خاص من الاجتهاد وهو «القياس»، لأن الدليل موجود لكن نحن بحاجة لاجتهاد لـ (فهم النص واستنباط الحكم منه).

<u>إذن</u>: تطبيق الأصولِ «علمًا ذا قواعد وطرق واستنباط ودلالات وفهم» كان موجودًا في حياة الصحابة زمن النبيّ ﷺ.

<u>علم أصول الفقه في زمن الصحابة بعد موت رسول الله ﷺ</u>

أمثلة على مســـــائل اجتهادية لم يكن فيها نصٌ قطعي، كانت بحاجة إلى إدراك وجه التنزيل فيها وإصابة الحكم بعد موت النبي ﷺ:

- **اختيار خليفة رسول الله ﷺ.**
- **إيفاد جيش أسامة رضي الله عنه.**
- **جمع المصحف.**
- **كتابة الحديث النبوي وجمعه.**
- **حروب الردة.**
- **استحداث الدواوين، والنظم الجديدة.**

قاعدة:

كل فعلٍ تركه النبيّ ﷺ مع وجود المقتضي له وانتفاء المانع؛ يجب علينا تركهُ إلى يوم القيامة.
تطبيق القاعدة على حادثة جمع المصحف:

- **زمن النبي ﷺ.**

المقتضي: لا يوجد لأن الصحابة حفّاظ.
المـانـع: أن القرآن ما زال يتنزّل.

- **زمن خلافة أبو بكر.**

المقتضي: حادثة مقتل الحفّاظ وكثرة قتلهم في الغزوات.
المـانـع: انتفى لانقطاع الوحي.

إلى الآن لم يصر بعدُ هذا العلم مكتوبًا في كتب ولا مصنّفات، لا زال علمًا في الصدور والعقول يمارسونه بالنظر والاستنباط والخلاف والنقاش.

علم أصول الفقه في عهد التابعين وأتباع التابعين

تعلّم التابعين علم أصول الفقه من الصحابة –رضي الله عنهم–كما تعلّم الصحابة هذا العلم من رسول الله ﷺ، تعلّموه من خلال التأثر بطرائق الصحابة في النّظر في الأدلة وطرق الاستنباط وقواعد الدلالات وما إلى ذلك، ولا زال العِلم عند التابعين محمولًا في الصّدور، ولم تبرز مسائله على شكل قواعد ولا مسائل نظرية، ولم تصنّف فيها الكتب حتى جدّت عدةُ أمور دعت إلى تدوين علم الأصول:

- الفتوحات واتساع الرقعة الإسلامية.
- ضعف اللغة، وانتشار العجمة.
- قلّة الصحابة رضي الله عنهم.
- قلّة رواية الحديث الشريف.
- نشأة الفرق والمذاهب المخالفة في نصف القرن الثاني الهجري.

أقوى الأمور التي أضعفت مسيرة العلم في انتقاله الوراثي عبر الأجيال:

نحن نعرف أن أكبر العوامل التي أعانت جيل الصحابة على التمكن من هذا العلم هو اللسان العربي الذي يمتلكون، فلما فتحت البلاد وكانت كثير منها غير عربية، أصحبت تبتعد مسافةً أكثر عن التعامل المباشر مع النص، فتحتاج أولًا إلى تعليم اللغة العربية، ثم إلى التمكن في تمكّن العرب، ثم تحتاج أن يكون لهم ممارسة واسعة في النصوص ليبلغوا مبلغ الجيل السابق في الفهم والاستنباط وقوة التعامل مع الدليل، وهذه من أقوى الأمور التي أضعفت مسيرة العلم في انتقاله الوراثي عبر الأجيال.

أبرز الأمور التي دفعت أتباع التابعين إلى حفظ هذا العلم وتدوينه:

لما اتسعت بلاد الإسلام ظهرت الفرق المخالفة لما عليه السلف، وأرباب هذه الفرق يستدلون لمذاهبهم بالأدلة الشرعية! فهو يستدل بالنصوص وهو يتكئ على جملة من القواعد التي يفهم بها النص، وهي طرق عقيمة وفاسدة. كطريقة الخوارج في الاستدلال على كفر مرتكب الكبيرة بحديث: «لا إيمان لمن لا أمانة له» و «ليس منا..» .

هذه الطرق العقيمة في فهم النص شيءٌ جديد ظهر في الأمة كان مرتبطًا بظهور المذاهب والفرق، إلى ما قبل ذلك كان الفهم سليمًا، والصحابة ورثّوا هذا الفهم السديد لمن جاء بعدهم.

هنا ظهرت الحاجة جليلة إلى أن يكون هذا العلم محفوظًا كي لا يضـــيع بين هذه المآخذ، مثل: ضعف اللسان، وضعف رواية الحديث في البلاد البعيدة عن الحجاز، وضعف الاستنباط الصحيح والتعامل السليم مع الأدلة.

رسالة الإمام الشافعي رحمه الله

الشافعي وضع أصولًا لعلمٍ لم يسبق في التاريخ أنّ أهل العلم كتبوا فيه ، وهذا يدل على عبقرية وذكاء متفرد وتميز في القدرة والملكة، وكتابه «الرسالة» هو بمثابة اللبنة الأولى التي وضعها علماء الإسلام في التأليف في أصول الفقه على الإطلاق، سبب تأليفها أن شيخه عبدالرحمن بن مهدي كتب إلى الشافعي وهو شابٌ أن يضع له كتابًا فيه معاني القرآن، ويجمع قبول الأخبار فيه، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب «الرسالة»، فحمل «الرسالة» الحارث بن سريج، الذي لقب بالنَّقال، ثم جمع الإمام الشافعي كتابه في مصر قبل وفاته بعد ٢٠٠ هـ، ولم ينقل إلينا شيءٌ مدوّن في علم الأصول قبل الرسالة.

من أهمّ أركان علم الأصول: الإلمام والدراية التامّة بلسان العرب. لأنك تتعامل مع القُرآن والسّنة وهذه نزلت بأفصح ما يكون عليه لغة العرب، وقد بلغ علمُ الإمام الشافعي باللغة أنّ الأصمعي – إمامُ اللغة في عصره بلا منازع– يذكُر للشافعي إمامةً في اللغة وأنّه يحضر مجالسه يتعلم منها فيه.

مميّزات كتاب الشافعي:

- أن مؤلفه هو الإمام الشافعي، وحسبك به.
- أنه أول مصنّف في أصول الفقه، وهذا السبق دليل على عبقرية صاحبه.
- جودة الترتيب وحسن التنظيم لمسائل الكتاب.
- استيفاء مسائل علم الأصول، على خلاف المعتاد في بدايات التصنيف.

موضوعات كتاب الرسالة:

(المقدمة، البيان وأنواعه، القرآن ومكانته في التشريع، مسائل العموم والخصوص وبعض صيغه، السنة وحجيتها، النسخ وأنواعه، بيان السنة للكتاب، علل الأحاديث، بيان السنة للسنة، النهي، خبر الواحد وحجيته، مسائل الإجماع، القياس والاجتهاد، الاستحسان، الاجتهاد في الحديث، حجية أقول الصحابة، العمل عندما ينفل عن بعض الصحابة عملًا في مسائل اجتهادية لا نص فيها)

مراحل نشأة وتدوين علم أصول الفقه بعد رسالة الشافعي

القرن الثالث

- **التأليف في هذا القرن لم يشمل جميع مسائل علم الأصول، ولكن كان في مسائل جزئية أشبه برسائل، كحجية خبر الواحد أو الإجماع أو القياس .. إلخ**
- **ارتبط التدوين بتبنّي مذهب أو الرد على مذهب.**

القرن الرابع

- **بدأ التدوين على شكل كتاب متكامل يجمع أبواب أصول العلم المتتابعة، ككتاب "الفصول" للإمام أبي بكر الجصاص الرازي الحنفي.**

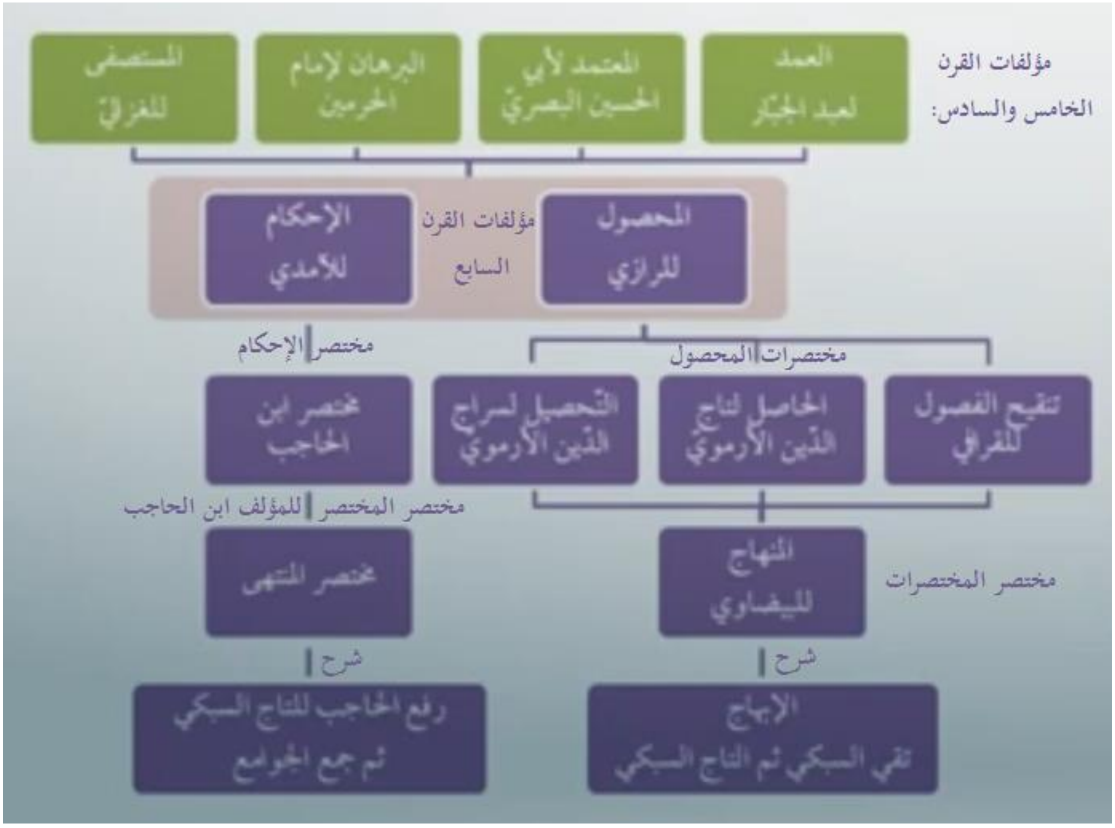
القرن الخامس والسادس

- **وهي المرحلة الذهبية للتدوين في علم الأصول، التي صنفت فيها أمهات كتب علم الأصول ومراجعه الكبار وأصوله المعتمدة في هذا الفن عند أرباب الفن والأصول، دوّنت فيها أربعة كتب تعد أركان علم أصول الفقه عند المتخصصين وهي :**
- العُمد للقاضي عبد الجبّار .
- المعتمَد لأبي الحسين البصري .
- البُرهان لإمام الحرمين الجويني .
- المُستصفى لحجّة الإسلام الغزالي .

مسيرة التأليف في علم أصول الفقه في القرن السابع وما بعده

ألّف في القرن السابع كتابين اكتسبا مكانةً عند الأصوليين باعتبار أن كلّ جهد بعدهما هو سالكٌ لطريق أحدهما: المحصول للرازي، والإحكام للآمدي، اكتسب هذان الكتابان مكانةً معتبرةً عند الأصوليين باعتبار أن كلّ ما جاء من جهد أصولي بعد هذين الكتابين هو سالكٌ لطريق أحدهما في الجملة.

المحصول للرازي جمع ما سبق من الكتب التي صنّفت في القرن الخامس في خليطٍ وصبّه في قالب كتابه «المحصول».



ابن السبكي بعدما شرح المختصرين وألمّ بهما إلمامًا جيدًا ووجد نفسه قد استوعب الكتابين الذين يدور عليهما شغل الدارسين للأصول في تلك المرحلة، شجّعه ذلك أن يُنشئ مختصرًا جديدًا في الأصول أسماهُ «جمع الجوامع».

منهج طلب علم الأصول

١) العناية بالمختصرات المبتدئة.

٢) الاعتناء بشرح أحد المختصرات، مع الرجوع إلى أمهات الكتب.

٣) التوسع في أمهات كتب الأصول، وفي الأبحاث الأصولية.

٤) جني ثمرة علم الأصول، وهي التطبيق.

خلل منهجي يقع فيه كثيرٌ في تعلم علوم الآلة:

وهو استهلاك جلّ الجهد والوقت في التعامل النظري مع هذا العلم، والتقصير في جانب التطبيق والممارسة.

المذاهب الأصولية

المذاهب العلمية في أصول الفقه:

١) مذهب الحنفية «أو الفقهاء».

٢) مذهب الجمهور «أو المتكلمين»، وهم المالكية والشافعية والحنابلة.

هذا التقسيم الذي استمر عند الأصوليين من تقسيم المذاهب إلى مذهبين هو بالنظر الى الطريقة التي سلكها الاصوليون في تدوين علم الأصول (منهجية التأليف).

ومن المذاهب أيضًا مذهب الظاهرية وهو مذهب مستقل تمامًا، استقل باعتماده على أصول كبرى خالف بها المذاهب الأربعة، وأشهر أصل يخالفون فيه هو جمودهم على ظاهر النص وإغفال ما عداه، وذلك سبب تسميتهم الظاهرية، والجمود معناه أنه لا يلتفت إلى معنىً يتضمنه النص وذلك صار من كبريات مسائلهم في الأصول نفيهم للقياس، وهم يلتقون مع الجمهور في كثير من المسائل، لكن لما كان خلافهم في مسائل كبرى، كان مذهبهم مستقلا.
وخلاف الظاهرية معتبر، فيما عدا خلافهم في القياس، لأن القياس ثبتت الحجة به من زمن النبوة.

منهجية تدوين علم الأصول:

- الحنفية: يستنبطون القاعدة من خلال فتاوى وأقوال وتصرفات أئمة المذهب الحنفي وفقههم، فلهذا تسمى طريقة الفقهاء لأنها تعتمد على الفقه مباشرة وتستقي منه وتبني عليه.
- الجمهور: يقررون المسائل ويناقشون القاعدة علم الاصول بالنظر الى المسائل والقواعد من حيث هي بتجرد دون النظر الى موقف المذهب منها، فيحاكم القاعدة الى ادلتها العقلية (ماذا لو قال السيد لعبده..) واللغوية (ماذا تريد العرب بصيغة كذا..) والشرعية.

ينتقد الجمهور طريقة الحنفية لأنهم جعلوا الفروع الفقهية أصلًا للأصول وهذا خلاف المنطق، ويرون أن الصواب والأسلم والأعدل في تحرير وصياغة قواعد هي محل تحكيم مع كل حادثة؛ ينبغي ان تناقش على محك الموضوعية ولا يصح اخضاعها إلى أي اجتهاد بل تناقشها حيث هي.

وسُــمّي الجمهور بالمتكلمين نظرًا لطريقتهم (منهجيتهم) في التأليف، وليس المقصــود فيه علم الكلام المذموم.

<u>أحد معايير التقسيم التي يراها الشيخ حسن بخاري:</u>

هي أن طريقة الحنفية في تقريرهم للقواعد الاصولية في بعض المسائل التي غدت أمهات مسائل علم الأصــول جعلت من الحنفية مذهبًا مســتقلًا في ما صــار الجمهور الى راي مقابل، فأصــول مســائل علم الأصــول كثر فيها انفراد الحنفية في مذهب، واتفق الجمهور مقابلهم على مذهب، فصار من نتاج هذا الوصف أن يصبح الجمهور في كفة يقابلون الحنفية. مثالين:

- الخلاف في دلالة العام أقطعية هي أم ظنية؟

الجمهور: على أنها ظنية «يحمل العام على الخاص "التخصيص"».

الحنفية: على أنها قطعية «لا يحمل إلا إذا اقترن به، أما إذا لم يأتي معه فالحكم للمتأخر منها زمنا».

- العمل عند تعارض الأدلة الشرعية ولم يثبت النسخ؟

الجمهور: الجمع مقدم على الترجيح.

الحنفية: الترجيح مقدم على الجمع.

المذاهب العقدية في أصول الفقه

التشـــابه في مباحث علم الأصـــول مع مباحث علم العقيدة أغرى كثيرًا ممن كتب في العقيدة أن يكتب في الأصول، وإن لم تكن له عناية بالفقه.

دخلت مسـائل الاعتقاد في صـلب علم الأصـول في القرن الخامس، فأدخل القاضـي عبدالجبار والقاضي الباقلاني كثيرًا من مسائل الاعتقاد على مسائل الأصول ضمنًا أو تصريحًا.

أكبر الاتجاهات العقدية التي برزت في علم الأصول: اتجاه الأشاعرة، واتجاه المعتزلة.

سمات ظهور هذه المذاهب العقدية داخل علم الأصول:

- **المبالغة في التجريد العقلي.**
- **نزعة المذهب العقدي للمصنف في تقرير مسائل علم الأصول.**
- **انقلاب بعض أبواب الأصول إلى معترك عقدي.**

آثار دخولها في علم أصول الفقه:

- **الانتصار للمذهب العقدي داخل كتب الأصول.**
- **ضعف الأثر الفقهي على حساب التجريد الكلامي الخاص.**

الحمدُ لله رب العالمين